اسكندر بوشكين (١)

Alexander Pushkin

أمير شعراء الروس

ترجمة الأستاذ عبد الكريم الناصري

بوشكين

في يوم ١٠ فبراير احتفل الروس في بلادهم وفي خارجها بمرور مائة عام على وفاة شاعرهم الأكبر اسكندر بوشكين

وقبل خاتمته الفاجعة ببضعة شهور كتب يقول: «لقد أقيم لذكراي نُصبٌ لم تَصْنَعه يد ... ولسوف يذاع اسمي في كل أرجاء روسيا، ولسوف يجري ذكري على كل لسان، ولسوف يتغنّى بشهرتي كل روسي ...»

وقد أدهشت هذه النبوءة مريديه والمعجبين به، فما عرفوه قطّ من قبل يتحدث عن نفسه على هذا النحو، وانما عرفوه حييًّا متواضعاً على ما أصاب من شهرة ومجد. بَيْدَ أنه كان مُصيباً في قوله، فإن شعرَهُ الآن جزء لا يتجزأ من العقلية الروسية، وشهرتَهُ قد تجاوزت حدود بلاده، حتى أن بعض البلدان، كصربيا، وتشيكوسلوفاكيا، وفارس، احتفلت رسميًّا بذكراه المئوية، هذا فضلا عن الاحتفالات التي أقامتها شتى أقطار الأرض. ومع ذلك لم يصب بوشكين في خارج روسيا ما هو حقيق به من الشهرة والتقدير، ولم ينل منهما في انجلترا ما ناله في فرنسا وألمانيا، بالرغم من أن المجلات الأدبية الانجليزية ذكرته سنة ١٨٢٢، ووصلته بقرائها، وبالرّغم من أن جماعةً من الشعراء والأدباء، ومنهم جورج بورو، تصدوا لترجمة قصائده

وقد كتب الشاعر الانجليزي المعاصر «موريس بيرنج»(١) فصولا في تقويم أدبه، وتقدير شعره، تعد من أحسن ما كتب عنهُ في أية لغة من اللغات بما فيها الروسيّة. كما أنه ترجم بعضَ قصائده الوجدانية ترجمة تدعو إلى الاعجاب على الرغم من قوله: «إن التصدّي لترجمة أشعار بوشكين محاولة فاشلة، وعمل يائس، يشبه تصديك لتمثيل ألحان موزار بالرسوم والتماثيل، وتحويلها إلى الألوان والأحجار.»

ولد «الكساندر بوشكين» في موسكو، في الثامن من يونيو سنة ١٧٩٩، وتوفي في بطرسبورج، في العاشر من فبراير سنة ١٨٣٧. وهو سليل أسرة من الأشراف، كان من شأنها الاعجاب بكل ما يتصل بفرنسا والفرنسيين ولا سيما آدابهم، وكان الفتى اسكندر يحفظ عن ظهر القلب كثيراً من بدائع موليير وفولتير، ولم يكن الحفظ عسيراً عليه، لما أوتيه من ذاكرة قوية ممتازة، وقد ظل طوال حياته قارئاً نهماً، حتى روى أنه لما حضره الموت شخص ببصره إلى الكتب المرصوفة على الرفوف وقال: «وداعا يارفاقي الأعزاء».

وأجداد بوشكين من جهة أمّه أفريقيون، ويحتمل أنهم أحباش، وقد جُلب جدُّه «أبرام هانيبال» إلى بطرسبورج — من القسطنطينية — هدية إلى بطرس الكبير، ثم صار سكرتيره الخاص، وكان بوشكين يفتخر بجده الأسود، وكان متأثراً بدمه الأفريقي، ولعلّ لهذا الدم يداً في نُضْجه المبكر، وفي هذه الحرارة التي تفيض بها أغانيه، على أن هذا التأثير لم يبلغ من الشدة بحيث يظن كثير من الناس

وفي سنة ١٨١١ دخل الليسيه في تسارسكوي سيلو Tseraskoye Selo، وهي مدرسة داخلية أسسها القيصر المتحرر الفكر اسكندر الأول، وشيد بنايتها في جانب من بلاطه؛ وهناك أنفق بوشكين ست سنوات سعيدات، طبعت أثناءها أولى قصائده، وكان عمره عندئذ أربعة عشر عاماً

ولما ترك المدرسة التحق بوزارة الخارجية، ولكنه لم يحبّر قط بلاغا رسمياً، وما كان ينتظر منه ذلك، وما بلغ الثامنة عشرة حتى كان باعتراف شيوخ الأدب، من أمثال كارامازين وجوكوفسكي، زعيما لشعراء عصره، وحتى كان شعره بغية الشبان يدرسونه ويحفظونه

(١) مترجمة عن مقالة نشرتها مجلة «المستمع» الانجليزية، بقلم أريادنا تيركوفا ويسمز، والظاهر من اسمها وإنشائها أنها روسية

(1) Maurics Baring

وقد لعبت السياسة دوراً مهما فى حياته ، فمع أنه لم يكن عضواً فى الجمعية السرية التى تشكلت سنة ١٨١٨ ، ثم سحقها الجيش فى فتنته [١] التى شبَّ أوارُها سنة ١٨٢٥ ، فانه عبر فى قصائده عن أغراضها — وخلاصتها تأليف حكومة دستورية وتحرير الفلاحين — تعبيراً أقوى وأشد إقناعا من براجمها الطويلة ولكن مالبث الرأى العام أن اشتد فى مطالبته بالاصلاح والتحرير فقلّ تسامحُ القيصر وفترت همته الاصلاحية ، وكان بوشكين أول من نزلت به عاقبة هذا الخلاف بين الأمبراطور ورعيته وذلك أنه نشر فى ذلك الوقت قصيدته الموسومة « بالحرية » ، وقصيدتين أخريين فى هجو أراكتشيف Araktcheev ، فنفى على أثرها إلى جنوب روسيا

وقد هيأ له منفاهُ — الذى لم يك قاسياً جداً — فرصة لمشاهدة بلاد القوقاس والقرم و برارى صربيا ، حيث عاش تلك العيشة التى التمسها بيرون [٢] ثم ظفر بها فى ألبانيا ، وكان بوشكين مسحورا ببيرون ، وما سحرهُ منه أسلوبهُ الشعرى ، بل بساطتهُ وإخلاصهُ [٣] وعنفُ عواطفه . وفى سنة ١٨١٩ ، دخلت الترجمة الفرنسية لكتاب بيرون Childe Harold روسيا ، فرحب بها هو وطائفة من أصدقائه الأدباء ترحيبا حماسيا ، بالرغم من سقمها وركاكتها . وبلغ من إعجاب الشاعر الروسى العظيم بالشاعر الانجليزى أنه أخذ نفسه بتعلم الانجليزيه ليقرأه بلغته الأصلية ، ولكن أسرار النطق الانجليزى كانت تحيره وتربكه ، حتى أن أصدقاءه الذين تعلموا الانجليزية منذ طفولتهم كانوا إذا سمعوه يقرأ عليهم شكسبير لا يملكون أنفسهم من الاغراق فى الضحك لأنه ينطق بالألفاظ الانجليزية كأنها لاتينية !

تأثر بوشكين ببيرون ولم يقلده — فما كان مقلداً وإنما كان مستعدا على الدوام لأن يتعلم ليس غير — وظهر هذا التأثير فى قصيدتيه « سجين القوقاس » و « نافورة باختشيسارای » . على أن التشابه قليل والفرق واضح بين الشاعرين : فبوشكين أرق وأودع ، وفكاهته النادرة أعمق ، فى غير إيلام ، وفهمه لطبائع الشعوب وخصائص البلدان أوسع وأبعد مدى .

بيد أن تأثير بيرون زايل شاعرنا بالتدريج حتى إذا بدأ بتأليف قصته الشعرية « إڤجنى أونيجن » Evgeni Onegin لم يكن بقى منه شىء . وتعد هذه القصيدة أول ما ألف من القصص الروسى الجيد ، وكان ترجنيفا يقول إن أربعة أبيات من مقدمتها تفضل آثاره جميعاً ، وكان لينين يجد فى صفحاتها مريحاً من عناء العمل ، وقد سمى القيصر نقولا الثانى ابنتيه الكبريين — تاتيانا وأولغا باسمى الأختين فى الرواية

ومع ذلك كان بوشكين يفضل عليها قصيدتيه « بوريس جودونوف » (١٨٢٥) ، و « پولتافا » [١] (١٨٢٨) ، والأخيرة — قصيدة تاريخية تصور النزاع بين بطرس الكبير وتشارلس الثانى عشر ملك السويد

أما الأولى فقد نظمها فى « ميخيلوفسكوى » Michailovskoye وهى بيعة لأبيه ، كان الشاعر نفى إليها بعد عودته من منفاه الأول لوقوع السلطات على رسالة له فيها ما يكرهون . وفى هذه الأعوام اشتد تركيز ذهنه وتمت له السيطرة على صناعته ، وقوى فيه الشعور بقيمة اللفظ فى الشعر ، حتى كان لا ينشر القصيدة إلا بعد أن ينحى عليها بالتصحيح والتنقيح أعواما

كان بوشكين حين نظم « جودونوف » تحت تأثير شكسبير . وهو من أوائل الروس الذين عرفوا شكسبير وقدروه حق قدره . قال فى رسالة إلى بعض أصدقائه : « أى رجل شكسبير هذا ! ! وما أصغر بيرون ، كتراجيدى ، بالقياس إليه . . إن بيرون لا يقدر أن يصف إلا شخصية واحدة ، هى شخصيته . فهو يعطى لهذه كبرياءهُ ، ولتلك بغضهُ ، ولأخرى مزاجَه السوداوىّ ؛ وهكذا ينتزع من شخصيته القوية النشيطة شخصيات كثيرة لاقيمة لها . وليس هذا من الفن التراجيدى فى شىء » [٢]

وقد خلصه النفى من الاشتراك فى الثورة التى قام بها أصحابه المعروفون بال Decabrists ولما أذن له القيصر نقولا الأول فى العودة من المنفى سنة ١٨٢٦ ، واستدعاه إلى موسكو . سأله « ماذا كان يكون موقفك يوم ١٤ ديسمبر فى موسكو ؟ » ، فأجابه — بوشكين : « كنت أشترك مع إخوانى العصاة »

وكان اجتماع القيصر بالشاعر خطة مدبرة أريد بها التأثير فيه وفى جميته التى استثار غضبها إعدامُ خمسة من الثوار . ولم

(1) Rising. (2) Byron. (3) Disenchantment

(1) (Boris Godounoff ; Poltava).

(٢) يقصد أن بيرون لا يحسن أن يصور من الشخصيات إلا التى تتميز بصفة من صفاته . فاذا تقدم لتصوير شخصيه ليس لها هذه الصفة ، عاد خائباً . فكأنه لا يصور شخصيات ، وإنما يقطع شخصيته أوصالا عديدة تؤلف كل منها شيئاً يحسبه شخصية ، وما هو بشخصية . (المعرب)

يكن بوشكين ـ على قوته العقلية العظيمة ـ ليختلف عن الطفل في سذاجته وسرعة تصديقه وانقياده ، ولذلك لم يجد القيصر صعوبة في اختلابه واجتذابه وإقناعه بأن الهدنة قد عقدت أخيراً بينه وبين الحكومة . ولم يكتشف كيف عبث به القيصر بمساعدة رئيس البوليس ـ كونت بنكيندورف ـ إلا بعد سنين

لم يكن بوشكين يتصور وهو في منفاه مدى الشهرة التي نالها بين قومه . فلما عاد إلى الاشتراك في الحياة الاجتماعية أذهلته مقابلتهم له . فقد كتب بعض الكتاب يقول : « موسكو السعيدة تحتفل اليوم بتتويجين : تتويج القيصر وتتويج الشاعر »

وفي الثلاثين من عمره تزوج من فتاة جميلة في الثامنة عشرة تدعى « تالي جونخاروفا » ، ولم يجلب عليه هذا الزواج سعادة بل ولاهدوءاً ، وما كان بيت الزوجية أكثر من خان باهظ النفقات . كان الشعر آخر شيء تحفل له الزوجة الشابة ، على أنها نجحت في المجتمع نجاحاً كبيراً . وفي هذه الفترة من حياة بوشكين ساءت أحواله . فقد تراكمت عليه الديون ، وتغير ذوق الجمهور فلم يعد يتحمس لذلك الحماس لروائع آثاره ، وتزايد حقد بعض فرق الارستقراطية عليه ، فعزم على الخروج بزوجه وأطفاله الأربعة إلى إحدى ممتلكات والده ، حتى يتفرغ لمشاريعه الأدبية الكثيرة ، ولكن القيصر عارض الفكرة . فاضطر إلى البقاء ، واستمر في الكتابة فاتر الهمة مكتئب النفس : وحدث أن شاباً فرنسياً جميلا يقال له البارون دانت Baron D'Antes ، تعرف بزوجته وأخذ يتودد إليها في إلحاح شديد ، فدعاه بوشكين إلى المبارزة ، فبارزه وجرحه جرحاً بليغاً ، أودى بحياته بعد يومين . وبموته تمت نبوءة عراف قال له سنة ١٨١٩ . إنه سيصير معبود قومه ، وينفى مرتين ، وبأن عليه أن يحذر رجلا جميلا قد يقتله حين يبلغ السابعة والثلاثين

اعتبر الشعب موت بوشكين رزية وطنية ، واشتد حزنه عليه حتى خشيت الحكومة أن يؤدي إلى قيام مظاهرات عدائية فأمرت بنقل الجثمان سرا إلى مقبرة «سفياتيجيورسكي» ـ القريبة من ميخيلوفسكوي ـ وهناك دفن

في أول ترجمة ظهرت بالانجليزية لحياة بوشكين ـ وهي ترجمة رائعة نشرتها مجلة « بلاكوود مجازين »[1] سنة ١٨٤٥ ـ كتب صاحبها توماس شو Thomas Shaw ، أستاذ الانجليزية في كلية (ليسيه) تسارسكوي سيلو ، يقول . « يمكن أن يقال إن قصيدة (إفجيني أونجين) أصبحت جزءاً من لغة الشعب الروسي ، ولا يزال هذا القول ـ وقد تقضت مائة عام ـ صحيحاً ملموساً

إن اسم « بوشكين » يرن في أسماع الروس رنين الأغاني والأغاريد . وقد تأصلت شخصيته في أعماق العقلية الروسية ؛ وإن الروسي ليعجز ، إن سألته ، عن تفسير حبه لبوشكين ، عجزه عن تفسير حبه للبحر أو لنور الشمس وقد يكون جوابه ابتسامة سعيدة يشرق بها وجهه

(بغداد) عبد الكريم الناصري

(1) Blackwood Magazine.

يصدر في منتصف المحرم

عمر بن الخطاب

تأليف : الشيخ علي الطنطاوي وأخيه ناجي الطنطاوي

مؤلف على نمط كتاب (أبو بكر الصديق) . روايات وأخبار صحيحة مجموعة من أكثر من ١٥٠ كتابا . ما بين مخطوط ومطبوع . كل جزء معزو لمصدره ، مع بيان الجزء والصفحة التي نقل عنها ـ وعليه تعليقات وافية ـ وصفحاته نحو ٨٠٠ مقسوم إلى مقدمة وثمانية أبواب وخاتمة .

يبحث في : نسب عمر وخبره في الجاهلية ـ إسلامه وصحبته ـ خلافته وأعماله ، سياسته مع أهله ، ومع الرعية ، ومع الولاة ، ومع الذميين ـ وسياسته المالية والعامة ـ مناقبه وخصائصه ـ أخباره الأدبية ـ خطبه وكتبه وأقواله ووصاياه ـ وفاته وتأبينه وحديث الشورى ـ أسرته وذريته ـ درس موجز لحياته

يمتاز هذا الكتاب بان صفحاته لم تملأ باخبار الفتوح ، وتاريخ الحروب ، وإنما ملئت كلها باخبار عمر ، وتدوين سيرته وأعماله وأقواله . أجمع وأصح كتاب في سيرة عمر صدر حتى اليوم

مطبوع على أجود ورق طبعة متقنة جدا ، تعادل أحسن الطبعات المصرية ، ومذيل بفهارس عامة شاملة

أبو بكر الصديق : تأليف الشيخ علي الطنطاوي

في ٣٦٠ صفحة ـ ثمنه ٨ قروش ـ بقي منه نسخ قليلة جدا

يطلب الكتابان من : (المكتبة العربية بدمشق)